أم مارية الأثرية
د. آلاء ممدوح محمود
ليدبروا آياته

الربع السابع عشر

المقطع الرابع من المحور الثاني: قصص الإحياء والإماته الحسية والمعنوية والعبرة منها

(260-243)

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253)}

"التفسير الموضوعي وترابط الآيات"

علاقة الآية بما قبلها

بعد أن ذكر الله قصة طالوت وجالوت، وذكر بعدها أنه أرسل النبي محمد من ضمن المرسلين، ذكر سبب ارسال الرسل للناس، وهو الهداية

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، ثم أتي بالتفصيل بعد الإجمال فبين بعض أوجه التفاضل فقال: { مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا صلى الله عليه وسلم الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين، كما في حديث دعاء بعد الآذان " آتِ محمد الوسيلة والفضيلة

والدرجة العالية الرفيعة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته" وكذلك {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} أعطاه الله البينات الواضحات، والدلائل الباهرات التي تدل على صدقه وصحة ما جاء به كإبراء الأكمه، والأكمه قيل: هو الذي يولد وهو أعمى، وكذلك أيضًا إبراء الأبرص، وإحياء الموتى، كل ذلك بإذن الله -تبارك وتعالى، فكان يمسح على ذي العاهة فيبرء بإذن الله، وكذلك أيده بروح القُدس جبريل عليه السلام يلازمه في أحواله، وبعد أن ذكر الله بعض آيات الرسل، ذكر حال الناس تجاه الهداية فقال تعالى{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ } ولو شاء الله ألا يقتتل الذين جاءوا من بعد هؤلاء الرسل الكِرام بسبب وجود البينات الموجبة للإجتماع، ولكانت الهداية فطرية في نفوس العباد واهتدوا جميعًا، ولكن كل شيء بإرادته ومشيئته وفق حكمته البالغة، فشاء الله أن يقتتلوا وكان السبب الظاهر في ذلك هو ما ذكره الله -تبارك وتعالى { وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا } فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } فإرادته غالبة ومشيئته نافذة، أراد الله وقوع هذا الاختلاف بين الخليقة، وأراد وقوع هذا الاقتتال منذ زمن بعيد، منذ أن وقع الشرك والكفر في قوم نوح، الصراع بين الحق والباطل مستمر لا يتوقف.

هداية .... وتدبر

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ	جاء بتلك اشارة للبعيد، فما قال: أولئك التي تستعمل مع الجمع، فكأنه يقول: تلك الجماعة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فضلنا بعضهم على بعض. والإشارة إلى البعيد إما للبُعد الزماني فيما بينهم وبين النبي ﷺ مدة طويلة، وبينه وبين آخرهم عيسى ما يقرُب من 600 سنة، أو بأن ذلك باعتبار علو المرتبة والدرجة، فأشار إليهم بالبعيد تلك الرُسل لعلو مرتبتهم ورفيع درجتهم فجاء التعبير

	بذلك.
	"ال" في الرسل للاستغراق، بمعنى جميع الرُسل، الذين قص الله خبرهم في هذه السورة، أو الرسل الذين أعلمك الله بأخبارهم فضل بعضهم على بعض. الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- يتفاضلون، يتفاضلون في الكتب المنزلة عليهم وأعظم هذه الكتب القرآن، ومن أعظم الكتب التوراة، والقرآن أعظم منها جميعًا، وتارة يتفاضلون في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم، وتارة في شرائعهم، فأكمل الشرائع هي هذه الشريعة، وأكمل الآيات هو هذا القرآن الذي بقي على مدى الدهور والتحدي به قائم، أما آيات الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فقد انقضت ومضت فهي خبر يؤمن أهل الإيمان، ولكن القرآن آية شاهدة، والتحدي به قائم.
	هذا التفضيل يؤتيه الله -تبارك وتعالى- من يشاء، وأحيانًا يكون بالشريعة المعطاة للرسل، أو بما هو عليه من العلم، أوالعبادة والعمل والدعوة، وقد يكون ذلك بكثرة المستجيبين له من أتباعه من أمته، كما هو الحال في نبينا ﷺ فهو أكثرهم تابعًا، وقد فضلوا جميعًا على أصناف بني آدم ومع ذلك هم يتفاضلون، فإذا كان واقعًا بين خواص خلقه، وهم خيار الخلق، الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فُضل بعضهم على بعض، فكيف بالتفضيل الذي يقع بين الخلائق في الآخرة؟، وكذلك التفضيل الذي يقع بين الناس في هذه الحياة الدنيا؟!، فإذا كان خواص الخلق يتفاضلون، فالتفاضل الذي يكون مع غيرهم أولى وأكثر، الله -تبارك وتعالى- يقول في العطاء الدنيوي: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً }[سورة الإسراء:21]، يعني: هذا التفاضل في الدنيا في العطاء هذا غني وهذا فقير، ويحصل بينهم في هذه الحياة الدنيا من الحسد والبغضاء والتشاحن بسبب هذا التفاوت في العطاء والإنشغال بما عند الناس إلا من وفقه الله وهداه وأصلح قلبه وأشغله بذنوبه، وبما ينفعه ويرفعه ويصلحه كما نُشاهد حيث تتوجه همم أكثر الناس إلى هذه الدنيا، إذا كان هذا التفضيل في الحياة الدنيا فما بالك بالتفضيل الحاصل في الآخرة.

فعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: "إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم"، أي أن أهل الجنة يتفاضلون، أهل الجنة يرون أصحاب الدرجات العالية كما نرى نحن الكوكب الغابر البعيد في الأُفق.

كم يبعد عنا الكوكب الغابر في الأُفق؟ إذًا كم بين درجات الجنة، وأصحاب الدرجات العالية؟!.

هذا التفاضل هو التفاضل الحقيقي، الذي ينبغي أن تتوجه إليه الهمم، والعزائم، وأن يشتغل الناس بما يوصل إليه، أن يسعى بأن يكون ممن له الدرجات العُلى، وهذا يحتاج إلى همم عالية وأعمال وصبر ومجاهدة،

أما القعود عن العمل الصالح والميل مع النفس ومتطلباتها وأهوائها وشهواتها فهذا لا يورث الفلاح، وإنما ذلك يجعل صاحبه في درجات.

ويوم القيامة سماه الله -تبارك وتعالى- بيوم التغابن، التغابن الحقيقي يحصل هنا، ومنه ما يحصل من التغابن بين أهل الجنة وأهل النار، فأهل الجنة يتوارثون منازل أهل النار التي في الجنة، وأهل النار يتوارثون منازل أهل الجنة التي في النار، وشتان ما بين هؤلاء وهؤلاء، كل أحد يقَدم على الله -تبارك وتعالى- ببضاعته، وقد أعطاه رأس المال الذي هو الأنفاس فمن الناس من جد واجتهد في العمل بطاعة الله، ومنهم من جد واجتهد في المعاصي، ومنهم من ضيع الزمان في طلب الدنيا وحطامها فوق حاجته حتى أدركه الموت، فلما قدِم القيامة فلم يُنفق هذا المال في طاعة، وإنما كان حارسًا عليه واشتغل العمل المديد في جمعه وفي تحصيله وإحرازه وتثميريه، ثم بعد ذلك قدِم على الله قدوم المفاليس، الآخرة تحتاج إلى عمل، وهذه الدنيا مهما طالت فهي قصيرة.

الناس يحصل بينهم غبن في الدنيا يبيع سلعة فيُغلب، يبيع عقارًا فيُغلب، يشتري سلعة فيُغلب، ويندم إذا علم بذلك، ولكن التغابن الحقيقي في الآخرة، وقد ذُكر عن الحسن -رحمه الله- قال: "بلغنا أن التغابن في ثلاثة وذكر منها: ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد، وعمل السيد بمعصية ربه

	فشقي" فهذا الرجل المملوك الذي أدى حق الله وحق سيده دخل الجنة، والسيد لم يحصل منه إيمان ولا عمل صالح فدخل النار، فالمملوك دخل الجنة، والسيد دخل النار، فهذا من أعظم التغابن. الثاني: ذاك الذي ورث المال فأنفقه في طاعة الله، والذي جمعه من حِل أو حرام حبسه ولم ينفقه في مرضات الله فدخل النار، والذي ورثه من غير كد ولا تعب وأنفقه في طاعة الله دخل الجنة"، هذا غبن، ذاك يجمع ويدخل النار بالمال، وهذا يأتيه من غير تعب ويدخل الجنة، وهكذا، هكذا يحصل التغابن في صور كثيرة.
مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ	حينما التفت من المتكلم إلى الغائب: {مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} فهذا أفخم، وأعظم، وأبلغ، فتكليم الله ليس بالشيء السهل، لذا أظهر لفظ الجلالة هنا ليكون أبلغ مما لو قال: (منهم من كلمنا)، على سبيل الإطراء والثناء.
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ	أبهم ذكر النبي محمد هنا ولم يُصرح به وذلك أفخم؛ لكونه قد عُرف بهذا التفضيل فهو الذي رُفع فوق جميع الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام في ليلة المعراج، فالإبهام في مقام يُعلم فيه المُبهم يكون أفخم وأعظم وأكثر في التنويه بشأنه، كأنه لا يشتبه ولا يلتبس يتبادر إلى الأذهان مباشرة.
وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ	خص موسى وعيسى -عليهما السلام- بالذكر وبدء بوصف موسى؛ لأن آيات موسى كانت أكثر، ولأن أكثر هذه سورة البقرة في بني إسرائيل، وأكثر ذلك كان في سياق يُذكر فيه أتباع موسى ثم ثنى بعيسى باعتبار أنه من جملة أنبياء بني إسرائيل، ولأنه آخر الأنبياء من بني إسرائيل قبل النبي ﷺ، ووصفه بهذين الوصفين على سبيل الخصوص بالبينات مع أن البينات آتاها الله سائر الرسل -عليهم الصلاة والسلام، ردًا على اليهود الذين أنكروا نبوته ورسالته والآيات التي أعطاها الله له، وهذا الإنكار حصل مع جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام، ولكن لما كانت اليهود حاضرة في وقت التنزيل وهم ألد الأعداء لهذا الدين ولرسوله الكريم -عليه الصلاة والسلام- جاءت هذه الردود عليهم صراحة لأنهم كذبوه واتهموه بأقبح التهم، واتهموا أمه -رحمها الله- فجاء التنويه به، ولذلك دائمًا

	في القرآن إذا ذُكر عيسى لا يكاد يُذكر إلا منسوبًا إلى أمه عيسى بن مريم، أما باقي الأنبياء يقال موسى، إبراهيم، وصالح، وهود، ونوح -عليهم الصلاة والسلام، للرد على اليهود وتذكير بالمعجزة حيث إنه ولد من غير أب.
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ	هذا يدل على أن هذا الشقاق والنزاع والشر الواقع بين هذه الخليقة أن ذلك إنما كان بعد مجيء البينات، يعني: لم يكونوا جاهلين بأمر الله -تبارك وتعالى- ومحابه ومساخطه وشرائعه. وقد ذكر الله -تبارك وتعالى- في مواضع أخرى أن ذلك من أجل البغي، وهو العدوان، وهذا البغي هو سجية لكثير من النفوس إذا حصل لها قوة أو غلبة أو ظهور أو نحو ذلك فإن الكثيرين لا ينفك عن هذا البغي إلا من عمر الله قلبه بالتقوى ومراقبته، والخوف منه، وإلا فإن هذا البغي قد يكون باللسان وقد يكون بالبنان بالكتابة، وقد يكون ذلك بالبطش إذا تمكن واستطاع. كمن يسب النبي بلسانه أو يقدح في الشريعة، أو من يكتب في الصحف والمجلات عن ديننا الحنيف من الملاحدة والعلمانية، أو من يقتلون أهل الاسلام ويحاربونهم، هذا كله من الأفعال والصفات القبيحة المذمومة، وهذا الاختلاف الذي يقع بين طوائف الخلق والبشر، هو من الاختلاف المذموم الذي يورث التدابر والتقاطع والبغي والاقتتال الذي كان بعد مجيء البينات، وكان ذلك هو السبب في شرور وآفات ومصائب وقعت عبر التاريخ ولا زالت تقع، ولو أن الناس رجعوا إلى الله بتجرد ورجعوا إلى كتابه وسنة رسوله ﷺ رجوعًا صحيحًا، واتقوا الله -تبارك وتعالى- فيما يأتون وما يذرون، ومن لا يُحسن النظر فإنه يُمسك لسانه ويده، وكذلك أيضًا من يجهل يرجع إلى العلماء الراسخين فإن ذلك يمكن أن يُفضي بأصحابه إلى خير، وإلى رحمة، وألطاف من الله وتقدست أسماءه، وهذا يدل على سوء الاختلاف المذموم، وقد نهى النبي ﷺ عن كل ما يؤدي إلى هذا، نهى عن التدابر والتقاطع، ونهى عن التهاجر، فقال النبي: "وكونوا عباد الله إخوانا"، "المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يُسلمه"، وهذا هو اللائق بين أهل الإيمان.

	علمنا ﷺ أن كف الأذى صدقة، يعني: الذي لا يُحسن يُقدم النفع والخير للناس فكف الأذى هذا باب من أبواب الصدقة. والسعيد من كان في ركاب الحق وسلم المسلمون من لسانه ويده، فذلك هو المسلم المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ	فكرر ذلك {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، و{لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}، فهم لا يفعلون ذلك بعيدًا عن إرادة الله ومشيئته، فالملك ملكه، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، فكل ما يقع في الكون ولو كانت أمورة مكروهة فإن ذلك بإرادة الله وذلك وفق علمه وحكمته، فله في ذلك الحكمة البالغة، فإذا تقاصرت العقول دون إدراكها فينبغي على العبد أن يرجع إلى هذا الأصل الكبير وهو أن الله عليم حكيم. قد لا يُدرك الإنسان الحكمة من وقوع بعض الأشياء، الحروب والنزاعات والقتال ونحو ذلك،، ولا يوجد في هذه الدنيا شر محض، ولا يوجد خير محض، وإنما ذلك باعتبار ما غلب، فما غلب فيه النفع والخير كان ذلك مشروعًا، وما غلب فيه الشر والفساد والضُر كان ذلك مذمومًا؛ وبذلك تظهر معاني أسماءه -تبارك وتعالى- فيظهر من قوته ونصره لأهل الإيمان، ويظهر من جبروته وانتقامه، ويظهر أيضًا من حلمه فهو لا يُعاجل بالعقوبة ويظهر من ألطافه ورحمته لأوليائه، إلى غير ذلك مما يحصل به الميز بين الناس، ويحصل فيه الابتلاء بين الخلائق. وهذا فيه رد على نفاة القدر الذين يقولون بأن الإنسان يخلق فعله بعيدًا عن إرادة الله وتقديره ومشيئته، فالله -تبارك وتعالى- شاء، وعلم قبل ذلك، وكتب، وخلق كل هذا وأراد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254)}

"التفسير الموضوعي، وترابط الآيات"

ثم أعاد الله الحديث بالأمر بالإنفاق لكن بأسلوب تهديد ووعيد، فحذر المؤمنين من ان يكون المال غاية أمرهم، كما فعل السابقون الذين قيموا من بعثه الله تقييمًا ماديًا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } هذا خطاب لأهل الإيمان بالإنفاق مما رزقهم الله -تبارك وتعالى- وذلك يشمل الزكاة المفروضة والصدقات التي يتطوع بها صاحبها، وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، ليكون لهم ذخرا وأجرا موفرا في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، لذا قال تعالى{ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ}، وذلك يوم القيامة، لا يكون فيه بيع، لا يكون فيه ربح، ولا مال تفتدون به أنفسكم من عذاب الله -تبارك وتعالى، ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولا شفاعة شافع يمكن أن يتوسط فيتخلص الإنسان من النار أو يُخفف عنه من عذابها، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين، لذا قال تعالى{وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، هم الذين وضعوا العبادة في غير موضعها، وأوقعوها في غير موقعها، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، صرفوا شكر النعمة إلى غير المُنعم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا	أن الإنفاق في سبيل الله -تبارك وتعالى- من مقتضيات الإيمان، فخاطب المؤمنين بهذا: أَنفِقُوا فإن إيمانكم يقتضي إنفاقكم، كذلك أيضًا خاطبهم بوصف الإيمان: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} باعتبار أن هذا الإيمان يكون سببًا للاستجابة لله -تبارك وتعالى- حيث أذعنت قلوبهم له وانقادت، فإن هذا الإيمان يحمل صاحبه على الطاعة والانقياد لربه ومولاه.
مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ	ينبغي للعبد أن يستشعر أنه لا مِنة له في هذا الإنفاق فهذا رزق الله -تبارك وتعالى، هو الذي أعطى وتفضل فيدعوك إلى الإنفاق مما أعطاك ورزقك، ومن ثَم فإن هذا العمل لا يصح بحال من الأحوال أن يورثه العُجب والغرور والتعاظم والتعالي بل عليه أن يحمد الله على أن وفقه لهذه النفقة، وأن يُخفيه فيكون ممن أنفق النفقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه، من شدة الإخلاص والإخفاء فإن الله -تبارك وتعالى- يعلم ذلك ويجزي عليه أفضل الجزاء.
	قوله: "مما" أي من بعض ما رزقكم الله، فلا يُطلب إنفاق كل المال وإنما يُخرج بعضه في الزكاة.
	العمل والسعي والضرب في الأرض وألوان المزاولات كل ذلك أسباب، لكن الرزق حقيقة إنما هو من الله -تبارك وتعالى فالإنسان لا يُحصل هذه الأموال والمكاسب والأرباح والثروات بذكائه ومهارته وحذقه، الكسب سبب هذا لا يُنكر، ولابد من هذه الأسباب، ولكن المُسبب هو الله -تبارك وتعالى؛ فلا يصح أن يُضيف ذلك إلى نفسه على سبيل التعاظم كذاك الذي قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} [سورة القصص:78]، فالمؤمن بخلاف ذلك، فقد يذهب الإنسان ويكدح ويقضي وقتًا طويلاً من أول النهار إلى آخر النهار ولا يرجع بشيء ، سواء كان ذلك في تجارة بيع وشراء، أو كان ذلك في شيء من

	الحِرف، قد يصنع أشياء ولكنها لا تُشترى منه، قد يدخل البحر ولا يصيد، وقد يصيد ولا يُشترى منه ذلك اليوم، قد يزرع ولا يخرج الزرع، وقد يخرج الزرع ولا يخرج الحب أو الثمر، وقد يخرج الحب أو الثمر وتأتي الآفة فتأتي عليه فتفسده، وقد يُحصد ولكنه يكون كاسدًا، فهذا كله من الله -تبارك وتعالى، قد يفتح الإنسان متجرًا بلون من ألوان التجارات ولكنه يخسر، يستأجر مكان، ويبذل الأموال فيه، ولربما يقترض، ثم بعد ذلك يخسر. هذا الغني وهذا الفقير بأي شيء صار هذا من أهل الثراء والغنى وبأي شيء صار هذا من أهل الفقر، قد يكون هذا الفقير أذكى بكثير من هذا الغني وأجلد وأقوى جسدًا، وأعلى همة، وأكثر نشاطًا، وقد يكون هذا الغني في غاية الضعف والخمول والكسل وقلة الحيلة ومع ذلك تأتيه أنواع المكاسب والأموال، فهذا رزق الله -تبارك وتعالى- قسمه بين العباد، فإذا دعا عباده إلى الإنفاق فينبغي أن يستجيبوا ويُبادروا مستشعرين أن المنة من الله -تبارك وتعالى: {أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ}، ولا يستشعر أن هذه النفقات مقطوعة من قلبه كما ذكر الله -تبارك وتعالى- في صفة المنافقين من الأعراب: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [سورة التوبة:98]، فهو يشعر أنها غير مخلوفه.
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ	الحث على المبادرة والإسراع بالإنفاق واغتنام فرصة العُمر قبل فوات الأوان طالما أنه في وقت الإمكان، وإلا فقد تقوم قيامته بموته، وقد تقوم القيامة ثم بعد ذلك أيضًا لا يستطيع أن يتصدق ولا يستطيع أن ينفع نفسه، فالنبي ﷺ أخبر عن سرعة قيامة الساعة وذكر: الرجلين ينشران الثوب بينهما، فلا يحصل هذا البيع هذا لا يبيع وهذا لا يشتري ولا يطويانه، الساعة تأتي بغتة، هناك لا يوجد كسب، وكل أحد مشغول بنفسه: {وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا} [سورة المعارج:10]، {يُبَصَّرُونَهُمْ} [سورة

	المعارج:11]، يراه ولكنه لا ينفعه في قليل ولا كثير، كل مشغول بنفسه، ولا أحد يشفع لأحد حتى يأذن الله -تبارك وتعالى- بعد ذلك بالشفاعة فيأذن للشافع والمشفوع وللشفاعة نفسها، وهذه لا تكون للكفار، كما قال الله تعالى {وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا} لا أحد يُغني عن أحد.
وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ	فجاء هنا بهذه المؤكدات، 1_ {وَالْكَافِرُونَ هُمُ}، جاء بضمير الفصل بين طرفي الكلام، يعني: ما قال: (والكافرون ظالمون) وإنما قال: وَالْكَافِرُونَ هُمُ مما يقوي نِسبة هؤلاء إلى الظلم. 2_ دخول "ال" على الظالمين فقال: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} هذا يُشعر بالحصر، يعني: كأنه لا ظالم إلا هم، وأنهم قد استحقوا النصيب الأوفى والأعظم والأكبر من الظلم، وحصلوا الوصف الكامل في الظلم، لأنهم قد اتصفوا بالظلم الأكبر كما قال الله -تبارك وتعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان:13]، وذلك أن هذا المُشرك الله أعطاه وأولاه وأحسن إليه وأكرمه ورزقه ثم بعد ذلك يصرف الشكر إلى غير من أنعم عليه، فهذا أعظم الظلم، يضع العبادة لمن لا يستحق، فذلك ظلم عظيم. يقول عطاء بن دينار -رحمه الله: "الحمد لله الذي قال: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} ولم يقل: والظالمون هم الكافرون". وفرق بين المعنيين: فكما قال الصحابة، مَن منا لم يظلم نفسه بالذنوب والمعاصي والسقطات والزلات، وأكثر ما وعد في القرآن من وعيد الظالمين إنما هو متوجه إلى المشركين كما قال ذلك الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات